المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لن أضع بين يديك مقدمة، ليس تكاسلًا ولا إهمالًا، بل لأنني أعلم أن عقلك سيتجاوزها كما يفعل مع كثير من الإشارات الصغيرة في الحياة.

علماء النفس يقولون إن الإنسان يتجه مباشرة إلى ما يثير دهشته، ويختزل ما يظنه تفصيلًا غير ضروري، مع أن التفاصيل هي التي ترسم الصورة الكاملة. وهكذا نمر على عتبات كثيرة دون أن ندرك أنها كانت أبوابًا

قد تظن أن غياب المقدمة لا يغير شيئًا، لكنه في الحقيقة اعتراف مبكر بأنك ستقفز مباشرة إلى قلب النص. وسأدعك تفعل ذلك، لأن ما ينتظرك لا يحتاج إلى تمهيد ولا تهيئة.

فقط أطلب منك أن تهيئ نفسك حضّر كوب قهوة، أو ضع شيئًا يسندك في يديك، لأنك ستقرأ رواية قصيرة في صفحاتها، لكنها محملة بما هو أثقل من الصفحات، وأثمن من الكلمات العابرة.

نسأل الله أن يجعلها كلمة صادقة تُلامس قلب من يقرأها، وأن تكون سببًا في تذكير أو يقظة أو خطوة أولى نحو النور ...

الفصل الأول : خطوات في زحام داخلي

محمد استيقظ على صوت المنبه، لكن لم يكن بحاجة له. الصخب في الشارع كان يكفي لإيقاظه. أصوات الباعة، أبواق السيارات، ضحكات الأطفال المختلطة بصراخ أمهاتهم، كل هذا كان يندمج في رأسه كضجيج دائم، لا يهدأ أبدًا. انتفض من السرير، رمى الوسادة بعيدًا، ولم يشعر برغبة في ترتيب الغرفة. كانت الغرفة ضيقة، نافذتها الصغيرة تطل على زقاق ضيق مليء بالقمامة، بينما الجدران الصفراء القديمة تحمل آثار الزمن والرطوبة، لكن محمد لم يكن يرى سوى الفوضى التي تشبه حياته.

توجه إلى المطبخ، حيث والدته كانت تحضر الفطور، صوت الصحون المعدنية تصدح كل صباح. لم يلق بالًا، أخذ خبزًا قديمًا، أمسكه بلا طعام، وأخذ يشرب الماء من الزجاج مباشرة. والدته نادته بصوت متعب:
– محمد! لا تنسى موعدك مع أصحابك اليوم.
لم يرد. لم يكن بحاجة للإجابة. كان مشغولًا بالفعل في التفكير في الليلة الماضية: ضحكات أصدقائه، الموسيقى العالية، الأنوار التي تومض في كل زاوية، والحياة التي تدور بلا توقف، وهو يركض خلفها دون أن يلمسها حقًا.

خرج إلى الشارع، والجو كان خانقًا بالرطوبة بعد أمطار الليلة الماضية. رائحة القمامة والرطوبة والخبز الطازج اختلطت مع دخان المطبخ والأفران الصغيرة. على الرصيف، كان أصدقاؤه ينتظرونه: سامر، الطويل صاحب الشعر الأشقر، الذي يضحك بصخب دائم، ويعتبر كل شيء لعبة؛ ونادر، الذي دائمًا يحمل سخرية ساخرة، ويحب اختلاق المواقف المضحكة رغم ضيق المدينة.

– وصلت متأخر، محمد؟ – قال سامر بابتسامة عريضة.
– كنت أستعد، – أجاب محمد بلا حماس، وهو يشعر أن الكلام مجرد حركة في الهواء.

تحركوا معًا إلى مقهى الحي، حيث الطاولات الخشبية القديمة تتمايل أحيانًا تحت أوزان الأكواب، والأرضية مرسومة ببقع قهوة متكررة تعكس تاريخ المكان. الجو كان مليئًا بدخان السجائر وصرير الكراسي، وضوضاء الراديو القديم الذي يذيع موسيقى صاخبة بلا توقف. محمد جلس، ورمى حقيبته على الطاولة، لا يبالي بصوت صريرها على الخشب.

– مساء الخير للجميع! – صاح نادر وهو يرمق الجميع بابتسامة مستهترة.
– مساء، – رد محمد، ونظر إلى النافذة، حيث المطر بدأ يتساقط من جديد، يضرب الزجاج برفق. لم يكن المطر يزعجه، لكنه جعله يشعر بارتجاف داخلي غريب، شيء لم يعرفه من قبل.

بدأت الحياة اليومية تتكشف أمامه: سامر يطلب قهوة قوية، نادر يسخر من نادل المقهى الذي بدا غاضبًا، محمد يراقبهم بلا اهتمام، لكنه في داخله كل ضحكة كانت تطلق صدى فارغًا. لاحظت الفتاة التي تعمل في المقهى، ليلى، التي طالما كانت تراقبه من بعيد بابتسامة خافتة. لم يتحدث إليها، لكنه شعر بأثر حضورها، كما لو أن وجودها يضعه أمام نفسه للحظة، يذكره بأنه يعيش حقًا، وأن قلبه موجود رغم الصخب.

بعد ساعات من اللهو والمقالب الصغيرة، خرجوا إلى الشارع، حيث الزحام أعظم، والروائح أكثر قوة: بائعي الفواكه، رائحة اللحوم من محلات الجزارين، عوادم السيارات، وبقايا المطر على الأرصفة. محمد شعر بثقل الخطوات، وكأن المدينة بأكملها تضغط عليه بلا سبب. حاول تجاهل الإحساس، لكن نظراته المتكررة إلى السماء الملبدة بالغيوم جعلته يشعر أن شيئًا ما بداخله يحاول الوصول إليه، لكنه لا يعرف كيفية سماعه.

في الطريق إلى الحديقة الصغيرة، لاحظوا مجموعة من الأطفال يلعبون كرة القدم على أرض طينية، أصواتهم العالية تتردد بين المباني القديمة. سقطت الكرة بالقرب من أقدام محمد، أحد الأطفال صرخ:
– ألقها يا عم محمد!

رفع الكرة وأعادها للطفل، لكنه لم يبتسم. شعر بتعب غريب، شعور بالمسؤولية لا يعرفه عادة. هذه اللحظة البسيطة جعلته يتساءل: لماذا لم أشعر بالسعادة مع أصدقائي كما كان يجب؟ لماذا كل شيء يبدو مجرد صخب بلا طعم؟

جلسوا على أحد المقاعد الخشبية المهترئة، سامر يفتح هاتفه ليعرض فيديو مضحك، نادر يعلق بتعليقات ساخرة، والمدينة حولهم تتنفس، أصواتها تتسلل إلى أذنيه، كل همسة، كل ضحكة، كل حركة كانت تنقل رسالة خفية: هناك فراغ بداخلك، ولا شيء خارجي يمكن أن يملأه.

بينما كان محمد يراقب الأطفال، لاحظ عجوزًا يجلس على مقعد بعيد، يقرأ القرآن بتركيز. الأصوات لم تزعجه، بل بدا كأنه جزء من العالم الخارجي بلا أن يلمسه، كل حركة في يده، كل همسة صوتية، كانت تنقل شعورًا بالسكينة التي يفتقدها محمد. شعر بشيء في قلبه يرتجف، لكنه لم يعرف ما هو. لم يكن غضبًا، ولا حزنًا، ولا فرحًا، بل إحساسًا غامضًا بالافتقار، وكأنه يرى الطريق الذي لم يسلكه بعد.

عادوا إلى شارع رئيسي آخر، حيث يزداد الصخب، أضواء المحلات تتداخل، والناس يمرون بلا توقف. توقف محمد عند زاوية، تنفس بعمق، شعر بالهواء يضغط على صدره، لكنه لم يكن ضغطًا جسديًا، بل شعور بالازدحام الداخلي، الرغبة في الهروب، الخوف من مواجهة نفسه. سامر شعر بتوقفه وسأله:
– ماذا بك؟ تشعر بالملل؟
– لا شيء، – رد محمد باختصار، لكنه شعر أن الكلمات مجرد قشرة تغطي على عمق لا يستطيع التعبير عنه.

في تلك الليلة، عاد إلى غرفته الصغيرة. النوافذ مفتوحة قليلاً، يدخل منها الهواء البارد ويمتزج برائحة المطر القديمة. ألقى حقيبته على الأرض، جلس على السرير، وأخذ ينظر إلى الجدران الصفراء، التي تعكس ضوء المصباح الخافت من الشارع. كل ظل، كل شق في الجدار، كان يبدو له وكأنه يهمس: ابحث عن نفسك، أنت هنا، لكن قلبك بعيد.

جلس يفكر في حياته: اللهو، السهر، أصدقاءه، الموسيقى العالية، والمقهى الذي أصبح جزءًا من يومه. كل شيء كان يتحرك بسرعة، وكل شيء كان فارغًا. لم يكن يعرف منذ متى أصبح يرى الحياة هكذا، بلا طعم، بلا معنى، بلا اتجاه. شعر بالغربة في قلبه، رغم أنه محاط بكل شيء يبدو حيًا وصاخبًا.

في هذه اللحظة، فتح نافذة غرفته، نظر إلى المدينة المضيئة تحت المطر، والضوء يتكسّر على الأرصفة، وصوت السيارات والباعة والمارة يختلط مع صوت قطرات المطر على الزجاج. شعر محمد لأول مرة بالاختلاف بين الخارج والداخل: العالم حوله مستمر بلا توقف، لكنه بدا لنفسه كلوحة صامتة، تنتظر أن يبدأ في الرسم، لكنه لم يعرف بعد كيف.

أخرج دفتره الصغير من حقيبته، لكنه لم يكتب. جلس فقط، ممسكًا بالقلم، يراقب الضوء يتغير على الصفحات الفارغة. كل صفحة كانت فرصة، لكنه لم يعرف أين يضع الحروف، كل ما عرفه أن شيئًا بداخله بدأ يطالب بالظهور، شيء لم يجرؤ على الاعتراف به: أنه فارغ من الداخل، وأن اللهو وكل الصخب لم يملأه، بل زاده بعدًا من الفراغ.

استلقى على السرير، وأغمض عينيه، يسمع أصوات المدينة تتخلل غرفته: ضحكات الأطفال، صرير السيارات، نبرة نادل المقهى، صوت المطر على الزجاج، همس الرجل العجوز في الحديقة، كل شيء أصبح لغة يقرأها قلبه، لغة تقول له: ابحث عن نفسك قبل أن تبحث عن أي شيء آخر.

حتى منتصف الليل، ظل محمد يستمع إلى المدينة من نافذته، يحاول تمييز كل صوت، كل حركة، كل ضوء. وكلما ركز على الداخل، شعر بصراع داخلي غريب: رغبة في الهروب، رغبة في التغيير، رغبة في التوبة، لكنه لم يعرف بعد كيف يحقق ذلك. كل شيء كان مجرد بداية، لكن بداخله، لأول مرة، شعر بشيء حقيقي، شيء ينبض، شيء يقول له: هناك طريق، لكن البداية بداخلك.

محمد خرج من بيته قبل الظهر، رغم أن الشمس لم تكن حاضرة بالكامل. الرطوبة كانت لا تزال عالقة في الجو بعد أمطار الليلة الماضية، والهواء يحمل رائحة التراب المبتل مع خليط من روائح القمامة والدخان المنبعث من محلات الحي. كل خطوة على الرصيف كانت تصدر صوتًا خفيفًا، لكنه كان يسمعه بوضوح، وكأنه صدى لحالة قلبه المتوترة.

الشارع كان مزدحمًا، الباعة يصرخون بعروضهم على الفواكه والخضروات، الأطفال يركضون حولهم، والناس يمضون في عجلة، كل واحد منهم مشغول بمهمته اليومية. محمد كان بينهم، يمشي بلا هدف، كأنه مجرد ظل يتحرك مع الزحام، لا يلمس أحدًا ولا يراه أحد. شعر بثقل الصمت الداخلي، رغم الضوضاء المحيطة، وكأن كل صوت يعلو من حوله يذكّره بالفراغ الذي بداخله.

مرّ بمحطة الحافلات، حيث الشباب يجلسون على المقاعد المعدنية، يتحدثون بصوت عالٍ عن مباريات كرة القدم، أو عن مقاطع الفيديو التي شاهدوها البارحة. أحدهم ضحك فجأة بصوت عالٍ، وسقطت حقيبته على الأرض، واصطدمت بزجاجة مياه صغيرة. محمد توقف قليلًا، التقط الزجاجة ورفعها، أعادها للشاب الذي ابتسم له بلا اهتمام، ثم تابع طريقه. كانت هذه لحظة قصيرة، بسيطة، لكنها جعلته يشعر بثقل كل شيء حوله، شعور بالمسؤولية، شعور بأنه موجود في عالم لا يتوقف عن الحركة، وأنه ليس لديه مكان محدد فيه، سوى نفسه.

اتجه إلى مقهى الحي، حيث اعتاد أن يجلس مع أصدقائه بعد كل يوم طويل. الجو داخل المقهى كان خانقًا قليلًا، مزيج من دخان السجائر ورائحة القهوة المحمصة. الطاولات الخشبية القديمة كانت مغطاة ببقع قهوة وفتات طعام، وصوت الأكواب المعدنية عند لمسها بالصواني يملأ المكان. محمد جلس، ورفع رأسه نحو

النافذة المطلة على الشارع، حيث المطر بدأ يتساقط مرة أخرى، قطرات الماء تصطدم بالزجاج برتابة تجعل الصمت يبدو حيًا أكثر من أي صوت آخر.

أصدقاؤه لم يتوقفوا عن الحديث، لكن محمد لم يكن مهتمًا كثيرًا بما يقولون. سامر كان يحكي عن رحلة صغيرة إلى ضواحي المدينة، عن كيف أضاع الطريق، ونادر يسخر من كل شيء، يجعل الضحك مجرد ضجيج بلا معنى. محمد ابتسم ابتسامة باهتة، لكنه لم يضحك. شعر وكأن كل كلمة منهم تنعكس على صدى داخله، تذكره بأن هذا كله ترف خارجي لا يملأ الفراغ الذي يحمله داخله منذ سنوات.

بعد ساعات من المقاهي والضحكات، خرجوا إلى الشارع مرة أخرى. المطر توقف، لكن الأرض المبتلة عكست كل أضواء المدينة، وتحولت الأرصفة إلى مرايا صغيرة، كل خطوة على الماء كانت تصدر صوتًا مختلفًا. محمد شعر بثقل كل حركة، كل شخص يمر، كل سيارة تمر، وكأن المدينة نفسها تحاول دفعه إلى الأمام دون أن يمنحه فرصة للراحة.

قرر أن يسير وحده قليلًا بعيدًا عن المجموعة. اتجه إلى شارع جانبي، حيث المباني القديمة تصطف بجانب بعضها، الطوب مكشوف، الحوائط متشققة، والدهان المقشور يتدلى بألوان باهتة. الهواء كان بارداً قليلًا، لكنه جاف نسبيًا بعد المطر. كل خطوة على الحصى الصغير كانت تثير صوتًا مميزًا، وأحيانًا تتردد أصداء خطواته على الجدران المقابلة. شعر بالوحدة، لكنه نوع من الوحدة الصاخبة، حيث كل شيء حوله ينبض بالحياة باستثناءه.

جلس على أحد المقاعد القديمة في الحديقة الصغيرة بين المباني، لم تكن الحديقة كبيرة، مجرد مساحات ضيقة من العشب متفرقة، بعض الأشجار الصغيرة التي لم تكبر بعد، وبعض الأزهار المهملة التي تحاول الصمود. الأطفال يركضون في الزوايا، بعضهم يلاحقون بعضًا، بعضهم يصرخ من فرط اللعب. محمد جلس بلا حراك، يراقبهم، يشعر بتباين حياته معهم: هم صغار، كل شيء يبدو بسيطًا بالنسبة لهم، بينما هو، رغم كبره في السن، يشعر بالضياع.

مرّت به امرأة مسنّة تدفع عربة صغيرة مليئة بالخضار، تمر ببطء، وتنظر حولها بلا اهتمام. محمد لاحظ تفاصيل يديه، الخطوط الدقيقة على الجلد، الأصابع التي تمسك العربة بقوة. شعر بشيء غريب، شعور بالدهشة أمام بساطة الحياة، أمام كفاح يومي مستمر، شعور أنه لم يختبر الحياة بهذا العمق أبدًا.

جلس قليلاً يستمع لأصوات الحديقة: خرير ماء من نافورة صغيرة، صرير مقعد خشبي يملأه أحد المارة، صياح طفل يسقط على الأرض، كل هذه الأصوات أصبحت واضحة بشكل لا يصدق بالنسبة له. شعر أنه لم يلتفت لهذه التفاصيل من قبل، وأن كل يوم كان يمر دون أن يلمس أي شيء حقيقي.

تذكر نهاره الذي بدأ مثل أي يوم آخر: الاستيقاظ، المقهى، الأصدقاء، ضجيج المدينة، الموسيقى العالية في الطريق، الرائحة المتكررة للخبز والقهوة والدخان، كل شيء مكرر، لا يتغير. كان يعيش حياة مليئة بالتحركات، لكنه لم يشعر بأي شيء. كل ضحكة، كل نكتة، كل خطوة، مجرد حركة بلا معنى، حتى أصوات المطر أصبحت أكثر صدقًا من أي شعور داخلي.

اقترب منه شاب آخر، زميل قديم في المدرسة، يركض خلف كلب صغير يهرول في الشارع، يصرخ باسمه:
– محمد! أنت هنا؟
– نعم، – قال محمد باقتضاب، شعور بالانزعاج من المقاطعة.

استمر الشاب يركض، يمسك بالكلب، يضحك، ويمضي في طريقه. محمد عاد إلى مراقبة الحديقة، إلى مراقبة تفاصيل بسيطة لم يهتم بها من قبل: حركة الأوراق تحت الريح، انعكاس الضوء على المياه المتجمعة في برك صغيرة، خربشات على المقاعد، كل شيء ينبض بالحياة رغم برودة المكان.

عندما بدأ المساء يقترب، انخفضت درجة الحرارة، وأصبحت أصوات الأطفال أقل، وبدأت المدينة تستعد لليلة جديدة من الحركة. محمد نهض من مقعده، شعر ببرودة الأرض تحت حذائه، الهواء أصبح أكثر حدة، ورائحة المطر القديم ممزوجة مع دخان السيارات كانت تملأ رئتيه.

مشى في الشارع الرئيسي، محاولًا إيجاد أي شعور طبيعي. رأى الأزقة الصغيرة التي لم يمر بها من قبل: أبواب خشبية متشققة، نوافذ صغيرة مغطاة بالستائر الباهتة، أصوات الحمام والطبخ تتسرب من الشقق، كل شيء يبدو حيًا، لكنه بعيد، غير متصل به. شعر بالعزلة وسط الحركة المستمرة، وكأن كل شخص يعيش في عالمه الخاص، بينما هو يعيش في عالمه الداخلي المتوقف عن الحركة.

دخل إلى مقهى آخر صغير، كان هادئًا نسبيًا، المكان القديم يملأه صمت النسيم الذي يدخل من الشارع المفتوح. جلس وحده، أمسك كوب القهوة، ورائحة البن كانت قوية، لكن لم تشعل أي شعور داخلي. فقط كان هناك الفراغ، شعور بالضياع، شعور بأن كل شيء حوله متكرر، وأنه لم يختبر أي شيء حقيقي.

خرج بعد قليل، وبدأ يسير في شارع آخر، ضيق، مظلم قليلًا، حيث أضواء المصابيح القديمة تتلألأ بشكل ضعيف، الظلال على الجدران الطويلة تتحرك مع الريح، كل حركة صغيرة كانت تترك أثرًا في نفسيته. شعر بالملل، بالإرهاق، بالفراغ المتزايد، وكأن كل خطوة تجعله أقرب إلى إدراك أنه يعيش حياة بدون عمق، حياة بلا معنى، حياة مليئة بالحركة بلا شعور.

عاد إلى البيت متأخرًا، الشارع شبه خالٍ، المطر توقف، لكن الأرض مبتلة، كل خطوة على الرصيف تصدر صريرًا مختلفًا، كأنها تعكس تدهور داخله. عند دخوله للغرفة، ألقى حقيبته على الأرض، جلس على السرير، وأغلق عينيه. كل أصوات المدينة بدأت تتلاشى، لكنه شعر بأنها تركت أثرًا: إحساس بالفراغ، شعور بالحركة التي لا تنتهي، شعور بالوحدة وسط كل شيء حي حوله.

جلس محمد يفكر في يومه كله: التفاصيل، الضحكات، الروائح، الخطوات، الألوان، الأصوات. كل شيء كان حقيقيًا، ملموسًا، لكنه لم يلمسه قلبه أبدًا. شعور بالضياع، شعور بأنه لم يبدأ الحياة بعد رغم أنه يعيشها منذ سنوات. كل شيء حوله كان يتحرك، لكن داخله كان ساكنًا، ثقيلًا، فارغًا.

أخرج دفتره الصغير، جلس، حاول الكتابة، لكنه لم يعرف من أين يبدأ. كل الكلمات شعرت له مصطنعة، غير صادقة. شعر أن أي حرف يكتبه سيكون مجرد محاولة لملء الفراغ، لكنه شعر بأن الكتابة قد تكون الطريق الوحيد لمحاولة فهم نفسه، لمحاولة لمس أي شيء حقيقي في حياته.

ظل جالسًا لساعات، ينظر إلى الضوء الخافت من الشارع، يتأمل انعكاسات الأضواء على الأرض الرطبة، يسمع أصوات أبسط تفاصيل المدينة: خطوات القطط، صفير سيارة تمر من بعيد، حركة الأوراق في الأشجار، خرير مياه مجرى صغير على جانب الرصيف. كل شيء بدا حيًا أكثر من أي شعور داخلي يمتلكه.

وعندما استلقى على السرير ليلاً، قبل أن يغط في النوم، شعر للمرة الأولى بأن هناك شيء داخله ينتظر أن يتحرك، شيء لم يره من قبل، شيء يشبه إدراكًا بسيطًا: أن حياته كلها حركة بلا شعور، وأن أي تغيير حقيقي، أي إحساس بالسلام، يجب أن يبدأ من داخله، حتى لو لم يعرف بعد كيف.
في صباح اليوم التالي، استيقظ محمد مبكرًا كما اعتاد، لكن لم يكن هناك شعور بالارتياح أو النشاط. الشمس كانت بالكاد تتسلل بين المباني العالية، والضباب خفيف يغطي الزقاق. المدينة كانت شبه صامتة، إلا من

أصوات السيارات النائية والباعة الذين يفتحون محلاتهم. لم يلتفت محمد كثيرًا للأصوات، بل لاحظ تفاصيل أخرى: رائحة الخشب القديم من باب جاره، قطرات المطر التي تجمعت على نافذة الشقة المقابلة، صرير السقالة على سطح مبنى قديم. كل شيء كان يلفت انتباهه بطريقة لم يعرفها من قبل، وكأن عقله أصبح حساسًا لكل حركة وصوت.

تناول إفطاره بسرعة، لم يكن جائعًا، وخرج على الشارع. الجو بارد قليلًا، والضباب يلتف حول المصابيح القديمة على الرصيف. رائحة القهوة القادمة من المقهى المجاور امتزجت مع رائحة التراب الرطب. المشي في الشوارع كان مختلفًا اليوم، لم يعد مجرد حركة عابرة، بل شعور بأن كل خطوة تُسمع، كل حركة ملموسة، وكل ظل يترك أثرًا في داخله.

مرّ بمحطة الحافلات، حيث تجمع بعض الطلاب والشباب ينتظرون وصول الحافلة. سمع أصوات نقاشهم حول امتحاناتهم، بعضهم يتحدث عن الحوادث اليومية، آخرون يضحكون على أمور تافهة. محمد تابعهم بصمت، شعر بشيء من الملل المزمن يتسلل إليه. كان يرى كل شيء بوضوح، لكنه لم يكن مشاركًا فيه، شعور بالغربة وسط الجميع، رغم أنهم في محيطه المألوف.

في المقهى المعتاد، جلس مع أصدقائه، سامر ونادر، اللذين لم يتغيرا كثيرًا منذ سنوات. سامر بدأ يحكي عن حفلة البارحة في شقة أحد المعارف، نادر أضاف تعليقات ساخرة عن كل موقف، بينما محمد اكتفى بالجلوس ومراقبتهم. كان يسمعهم، يبتسم أحيانًا، لكنه لم يضحك. كل ضحكة كانت له صدى، تذكره بالفراغ الداخلي الذي لا يمكن لأي صخب خارجي ملؤه.

بعد فترة، خرج محمد ليتمشى في شوارع الحي، بعيدًا عن أصدقائه. أراد أن يبتعد عن الأصوات العالية، عن الضحكات المكررة، وعن كل شيء يذكره بأنه جزء من عالم لا يملأه. المشي وحده جعله يلاحظ تفاصيل صغيرة لم يلتفت إليها من قبل: نافذة نصف مفتوحة، رائحة خبز صادرة من فرن قديم، ورقة شجرة تتساقط ببطء على الرصيف. كل شيء بدا حيًا، لكنه كان يدرك فجوة فارغة بداخله، شعور بأنه موجود بلا معنى حقيقي.

دخل إلى زقاق ضيق، حيث المباني القديمة تتقارب، والظلال تتداخل مع ضوء المصابيح، والهواء البارد يملأ صدره. توقف لحظة، شعر بحركة خفيفة على الأرض، نظر، وجد قطة صغيرة تحاول عبور الزقاق، تخاف من كل صوت. ابتسم له قليلًا، لكنه أدرك أن ابتسامته لم تملأ الفراغ الداخلي، لم يكن هناك شعور بالبهجة، مجرد ملاحظة بسيطة.

عاد إلى الشارع الرئيس، حيث الحركة أكبر. السيارات تمر بسرعة، المارة يجرون، الباعة يصرخون بعروضهم على الفواكه والخضروات، رائحة اللحوم المشوية تمتزج مع رائحة القهوة والدخان، كل شيء يندمج في خليط صاخب. محمد شعر بالتعب الداخلي يزداد، وكأن كل هذا الصخب يحاكي فراغه النفسي بدل ملئه.

في الطريق إلى البيت، لاحظ مطعماً صغيراً لم يلتفت إليه من قبل. الرائحة التي خرجت منه جعلته يتوقف قليلاً، رائحة الطهي المتصاعدة، حرارة الفرن، صوت المقلاة على النار، كل هذا يخلق شعورًا بالدفء الذي لم يشعر به منذ وقت طويل. لكنه لم يدخل، اكتفى بالوقوف للحظة، مراقبًا الحياة التي تواصلت حوله بلا توقف، مدركًا مرة أخرى أنه مجرد مراقب غير مشارك.

في المساء، جلس في غرفته، لا يفعل شيئًا سوى النظر إلى الضوء الخافت القادم من الشارع. صوت المطر بدأ من جديد، لكنه لم يزرع أي شعور بالفرح، فقط شعورًا بالوقت الذي يمر بلا توقف. حاول كتابة بعض الأفكار في دفتره، لكنه شعر أن الكلمات تتردد على سطحه دون أن تلمس قلبه. كل حرف يكتبه يذكره بالفراغ، بأن أي محاولة خارجية لتغيير حياته ستكون عديمة الفائدة إذا لم يبدأ من الداخل.

في الأيام التالية، استمر نمط الحياة نفسه: الذهاب إلى المقهى، الضحك مع الأصدقاء، مشاهدة التلفاز في الشقة، التنقل في الشوارع المزدحمة، لكن كل شيء بدا مختلفًا. أصبح يلاحظ التفاصيل الدقيقة: حركة أوراق الأشجار، انعكاس الضوء على الأرض المبتلة، أصوات السيارات والباعة، خطوط الطوب المتشققة على الجدران، كل شيء أصبح له معنى أكبر من أي محادثة أو ضحكة.

حتى مع أصدقائه، أصبح محمد أقل مشاركة، أكثر صمتًا، وأكثر مراقبة لكل حركة وصوت. سامر لاحظ تغيره وقال له:
– ما بك اليوم؟ تبدو مختلفًا...
– لا شيء... فقط متعب، – رد محمد باختصار، دون أن يشعر أنه يكذب، فقط لم يعرف كيف يشرح ما يشعر به.

ذات مساء، خرج بمفرده في زقاق بعيد عن الشارع الرئيسي، حيث الأشجار الصغيرة تحيط بالأرض، والأرضية غير مستوية، والمباني القديمة تصدر صريرًا مع الريح. جلس على مقعد خشبي متهالك، لاحظ أصوات المدينة تتسلل من بعيد: ضحكات الأطفال، خطوات المارة، صوت مقطورة صغيرة تتحرك على الرصيف، كل شيء أصبح له معنى مختلف.

بدأ يراجع يومه: تفاصيل كل ضحكة، كل كلمة، كل حركة. شعر بأن كل شيء كان متكررًا، بلا معنى، وأنه لم يلمس أي شيء حقيقي منذ سنوات. كل المقهى، كل الأصدقاء، كل الموسيقى، كل الصخب، مجرد حشو للوقت، ولم يملأ قلبه بأي شعور حقيقي.

مع مرور الأيام، أصبح محمد أكثر حساسية للتفاصيل: لون السماء عند الغروب، صوت القطط تتجول في الزقاق، رائحة الخبز الطازج من الفرن، صرير المقاعد في المقهى، كل شيء أصبح يلامس إحساسه الداخلي. لم يعد يرى الناس مجرد وجوه، بل حركات، نظرات، أصوات، تفاصيل صغيرة تكشف عن الحياة الحقيقية التي يعيشها كل شخص حوله، لكنه لم يكن جزءًا منها.

بدأ يلاحظ أثر الوقت على كل شيء: الشوارع، المباني، الحوائط، الشجيرات الصغيرة، حتى الوجوه المارة التي تغيرت مع الزمن. شعر بالشيخوخة قبل الأوان، ليس جسديًا، بل داخليًا. كل شيء يتحرك، وكل شيء يتغير، إلا هو. الفراغ بدا أعمق، الإدراك أصبح أكثر وضوحًا، لكنه لم يعرف كيفية التعامل معه.

في مساء آخر، جلس عند نافذة غرفته، ينظر إلى الأضواء المتلألئة على الأرض الرطبة بعد المطر، صوت السيارات والباعة يمتزج مع صوت الريح في الأشجار. شعر بالانعزال المطلق، شعور أنه يعيش في حلبة صاخبة، يراقب كل شيء، لكنه غير قادر على المشاركة. كل حركة، كل ضحكة، كل رائحة، كل صمت، كل شيء أصبح أكثر وضوحًا بالنسبة له، لكنه لم يلمس أي شعور داخلي يغير الفراغ بداخله.

في الأيام التالية، أصبح المشي وحده عادة دائمة: الزقاق، الحديقة الصغيرة، المقاهي القديمة، الشوارع الرطبة بعد المطر، كل شيء يلاحظه بتفصيل كبير، كل حركة تثير شعورًا داخليًا جديدًا. أصبح يراقب نفسه أكثر من الآخرين، كل إحساس، كل شعور، كل إرهاق، كل ضحكة صامتة.

هكذا، استمرت أيامه بلا تغيير خارجي، لكن داخله بدأ يتحرك شيئًا فشيئًا: فراغه أصبح واضحًا أكثر، تفاصيل الحياة أصبحت أكثر تأثيرًا عليه، صوته الداخلي بدأ يصرخ بلا كلمات، مجرد شعور بالضياع، بحاجة لا يعرف كيف يملأها.

الفصل الثاني : إيقاع خفي

استيقظ محمد على أصوات الشارع قبل أن يطلق المنبه صوته. لم يعد الصخب يزعجه كما في السابق، بل أصبح ينصت إليه كنغمة مألوفة تحمل بين طياتها أسئلة لم يجد لها إجابات. نهض من سربه، ونظر من النافذة الصغيرة إلى الزقاق الضيق، حيث بدأت الحياة اليومية تدب رويدا رويدا.

رأى بائع الخضار وهو يرتب بضاعته بعناية، وسمع ضحكات الأطفال وهم يتجهون إلى المدرسة. كل شيء كان يعرفه، لكنه اليوم كان يراه بعينين مختلفتين.

في المطبخ، وجد والدته تعد الفطور كما العادة. لم تتحدثا كثيرا، فقط تبادلا نظرات عابرة. نظرتها كانت تحمل قلقه المعهود، ونظره كان يحمل ذلك الصمت الثقيل الذي يرفع جدارا بينه وبين العالم. أكل قطعة خبز سريعا وشرب الماء، ثم هم بالخروج.

"محمد"، نادته والدته بصوت خافت، "هل ستلتقي بأصدقائك اليوم؟".

أدار رأسه نحوها قليلا وأجاب: "ربما". كانت كلمته الوحيدة قبل أن يغلق الباب خلفه.

في الشارع، كان الهواء يحمل رائحة الخبز الطازج مختلطا برطوبة الصباح. اليوم، كان محمد أكثر وعيا بالأصوات من حوله. كان يسمع همسات الباعة، صوت دراجة هوائية من بعيد، حفيف أوراق الشجر التي كانت تتساقط على الرصيف. كان يشعر وكأن حواسه أصبحت أكثر حدة، وكأنه يسمع دقات قلب المدينة الخفية.

عند مدخل المقهى المعتاد، رأى سامر ونادر جالسين في مكانهما المعتاد. سامر كان يقلب هاتفه بملل، بينما كان نادر يحاول إضحاك النادلة بمزحة سخيفة. عندما رأياه، لوحا له بإيماءة اعتيادية.

"أخيرا يا غائب!" قال سامر وهو يدفع له كرسيا، "كأنك نسيت الطريق!".

جلس محمد دون أن يرد. أمسك بكوب القهوة الذي وضع أمامه، وشعر بحرارته تنتشر في كفيه. اليوم، لاحظ أشياء لم يراها من قبل: تشققا صغيرا في مقبض الكوب، بقعة قهوة جافة على الطاولة تشبه خريطة عالم مجهول، نظرة التعب في عيني النادلة وهي تتنقل بين الطاولات.

"ما بك اليوم يا فيلسوف؟" قال نادر وهو يدفعه برفق، "ستظل صامتا أم أنك ستشاركنا الحديث؟".

نظر محمد إليه وقال: "أنا فقط أتساءل: ماذا نفعل هنا كل يوم؟".

ساد صمت قصير. تبادل سامر ونادر نظرة مستغربة.

"نحن نعيش يا صديقي!" قال سامر بضحكة مفتعلة، "نشرب القهوة، نضحك، نخرج لنشاهد الناس. الحياة بسيطة".

"بسيطة؟" رد محمد بصوت هادئ لكنه حاد، "أنا لا أرى هذه البساطة. أرى نمطا مكررا بلا معنى".

هذه المرة، طال الصمت. حتى نادر، سيد السخرية، لم يجد ما يقوله. كان محمد ينقل لهم شعوره لأول مرة، وكانت كلماته تسقط مثل الحجارة في بركة راكدة.

بعد فترة من الصمت المحرج، اقترح سامر الخروج للمشي. في الشارع، كان محمد يمشي بخطوات أبطأ، ملاحظاً كل ما حوله لأول مرة. لاحظ العمال وهم يصعدون إلى الحافلات، والأطفال وهم يلعبون بكرة متهالكة، العجوز الذي كان يقرأ القرآن في الحديقة قبل أيام، كان اليوم جالسا في نفس المكان، لكنه كان يبدو أكثر هدوءا وسكينة.

"لماذا تتوقف دائما؟" سأل سامر بعد أن لاحظ توقف محمد عند مدخل الحديقة.

"أنا فقط أنظر" أجاب محمد، وعيناه تتبعان طفلا صغيرا كان يحاول مساعدة أبيه في حمل صندوق ثقيل.

وصلوا إلى الحديقة الصغيرة وجلسوا على المقعد الخشبي المهترئ. الأطفال كانوا يلعبون، والطيور تغرد، لكن محمد كان يسمع شيئا آخر: صوت صمت داخلي عميق يعلو فوق كل هذه الأصوات.

"تبدو غارقا في أفكارك اليوم" قال نادر وهو يجلس بجانبه.

نظر محمد إلى الأفق وقال: "أفكر في كل شيء حولنا... كل شيء يتحرك ويستمر، ونحن مجرد ظلال عابرة".

ضحك سامر وقال: "كل هذا يبدو فلسفيا جدا بالنسبة لقهوة الصباح!".

ابتسم محمد ابتسامة باهتة، لكنه شعر أن شيئا بدأ يتغير داخله.

في طريق العودة، قرر محمد أن يسلك طريقا مختلفا. مر من خلال زقاق ضيق لم يعتد المرور منه. هناك، سمع همسات لا تسمع عادة: حفيف أوراق الشجر الجافة، قطرات ماء تتساقط من شباك،أنفاس قط يتسلل بهدوء. كان العالم هنا مختلفا، أبطأ، وأكثر صدقا.

عندما عاد إلى غرفته في المساء، لم يعد يشعر بنفس الثقل الذي كان يشعر به من قبل. اليوم، لم تكن الأصوات مجرد ضجيج، بل أصبحت لغة يفهمها بشكل مختلف. كل صوت كان يحمل قصة، وكل قصة كانت تذكر بهمسة ذلك الصمت الداخلي الذي بدأ يخاطبه.

أخرج دفتره القديم وفتحه على صفحة بيضاء. لأول مرة منذ شهور، شعر برغبة حقيقية في الكتابة. لم يكتب بعد، لكنه أمسك القلم وشعر بأن الكلمات قد تبدأ بالتدفق يوما ما.

نام محمد وفي أذنه همسات الزقاق، وفي قلبه بصيص من الأمل بأنه قد يجد يوما ما المعنى الذي يبحث عنه.
استيقظ محمد على صوت الأذان يصدح في الفجر، منادياً للصلاة. لم يكن هذا هو ما أيقظه عادة، لكن اليوم كان مختلفاً. صوت المؤذن الهادئ الحزين اخترق زجاج نافذته المتسخ ووصل إلى أذنيه وكأنه نداء شخصي. لم ينهض للصلاة، لكنه جلس على حافة السرير، مستمعاً إلى النغمات الأخيرة للأذان تذوب في صمت الصباح الباكر.

نظر من نافذته إلى السماء التي بدأت تتحول من اللون الأسود إلى البنفسجي الفاتح. النجوم كانت تتراجع واحدة تلو الأخرى، وكأنها تغمض عيونها لتترك المجال للشمس. في الأسفل، كان الشارع خالياً إلا من قطة سوداء تجري خلف شيء غير مرئي. كان هذا هدوءاً لم يعرفه محمد من قبل. عادة ما كان يستيقظ على ضجيج الحياة الكاملة، لكن اليوم استيقظ على همسها.

خرج من شقته بهدوء، متجنباً إيقاظ والدته. الهواء البارد لف وجهه كشاشة خفيفة. رائحة الأرض البللة بعد أمطار الليل كانت نقية، مختلفة عن روائح النهار المختلطة بالدخان والقمامة. سمع صوتاً خافتاً من زقاق ضيق قريب. اتجه نحوها وكأن قوة خفية تقوده.

في نهاية الزقاق، رأى مسجداً صغيراً قديماً، جدرانه متشققة لكنها نظيفة. أمامه، وقف رجل عجوز يرتدي جلباباً أبيض، يستعد لفتح أبواب المسجد. لم يكن هذا الرجل سوى الشخص الذي رآه محمد في الحديقة قبل أيام، الذي كان يقرأ القرآن بهدوء.

"السلام عليكم"، قال محمد بصوت خافت، مندهشاً من نفسه.

التفت العجوز مبتسماً، "وعليكم السلام ورحمة الله. ما جاء بك في هذا الوقت المبكر يا بني؟"

لم يعرف محمد ما يجيب. شعر بالحرج لكن الرجل قال: "لا بأس. أحياناً تأتي الأقدام إلى حيث تحتاج القلوب أن تكون".

دخل محمد المسجد خلف العجوز. كان المكان بسيطاً، سجاده أخضر متواضع، ومصابيح ذهبية تتدلى من السقف. رائحة المسك والعطور الخفيفة ملأت الجو. جلس في الزاوية الخلفية، يشاهد المصلين يدخلون واحداً تلو الآخر، كل منهم يحمل هموماً مختلفة على وجهه، لكنهم جميعاً يتركونها عند باب المسجد.

عندما بدأت الصلاة، وقف محمد في الصف الخلفي، يحاول تقليد حركات المصلين. لم يكن يعرف كيف يصلي بشكل صحيح، لكنه شعر براحة غريبة وهو يركع ويسجد مع الجماعة. في السجود، عندما لمس جبهته الأرض الباردة، شعر بإحساس غريب بالتواضع والسلام. الدموع تذرف من عينيه.

بعد الصلاة، جلس مع العجوز في زاوية المسجد. قدّم له العجوز كوباً من الشاي الساخن.

"اسمي الشيخ عمر"، قال الرجل بلطف. "أراك هنا لأول مرة".

"محمد"، أجاب بصوت متهدج. "أنا... لم أعتد المجيء إلى المساجد".

"لكن قلبك كان يتوق إلى هذا المكان"، قال الشيخ عمر مبتسماً. "أليس كذلك؟"

لم يجب محمد، لكن عينيه قالت كل شيء.

أخذه الشيخ في جولة حول المسجد الصغير، أراه المكتبة الصغيرة في الزاوية، حيث كانت رائحة الكتب القديمة تفوح في الهواء. "هنا نجد إجابات الأسئلة التي تزعجنا في الخارج"، قال وهو يمرر يده على غلاف مصحف قديم.

خرج محمد من المسجد وشعر وكأنه خرج من عالم آخر. الشمس كانت قد بزغت، والأصوات المعتادة للشارع بدأت تعلو. لكن اليوم، كانت هذه الأصوات مختلفة. لم تعد مزعجة، بل أصبحت جزءاً من سيمفونيا الحياة.

عندما مر بالمقهى المعتاد، رآه سامر ونادر وجلسا ينتظرانه. لكن اليوم، لم يشعر بالرغبة في الجلوس معهم.

"أين كنت؟" سأل سامر بفضول. "لم نرك البارحة ولا هذا الصباح".

"كنت أبحث عن شيء"، أجاب محمد بهدوء.

ضحك نادر: "تبدو وكأنك وجدت كنزاً!".

ابتسم محمد ابتسامة حقيقية لأول مرة منذ أشهر. "ربما وجدت شيئاً ثميناً بالفعل".

لم يجلس معهم طويلاً. بعد عشر دقائق، اعتذر وتركهما. مشى في الشوارع الجانبية التي لم يعتد المرور منها. لاحظ اليوم تفاصيل لم يرها من قبل: زخارف إسلامية على نوافذ البيوت القديمة، متجر صغير لبيع العطور والتوابل، لوحة مكتوب عليها آية قرآنية على جدار متهالك.

في طريق عودته إلى البيت، مر بحديقة الحي ورأى الأطفال يلعبون. لكن اليوم، لم يشعر بالغربة بينهم. جلس على مقعد خشبي وراقبهم وهم يلعبون، مبتسمًا لبراءتهم.

عندما عاد إلى غرفته، لم يجدها ضيقة ومظلمة كما اعتاد. أشعة الشمس كانت تدخل من النافذة، مشكلة خطوط من الضوء على الجدار الأصفر. أخرج دفتره القديم وفتحه. هذه المرة، لم يتوقف عند الصفحة الفارغة. كتب: "اليوم، سجدت لأول مرة، ولمست الأرض بجبيني. شعرت أنني عدت إلى بيت لم أكن أعرف أني غادرته".

نظر من النافذة إلى المدينة الصاخبة. الأصوات كانت نفسها، لكن مسامعه أصبحت مختلفة. سمع نداء الأذان للمغرب يعلو فوق ضجيج السيارات والباعة. هذه المرة، نهض من مكانه.أين يجب أن يكون.

في الطريق إلى المسجد، شعر أن خطواته أصبحت أخف، وكأن قلبه يرفرف في صدره. كان يعلم أن الرحلة قد بدأت للتو، لكنه لأول مرة شعر أنه يسير في الاتجاه الصحيح.

العالم الخارجي لم يتغير، لكن عالم محمد الداخلي كان يولد من جديد.

عندما خرج محمد من المسجد ذلك الصباح، أحس أن الهواء صار ألين على صدره، وكأن صدره نفسه صار أوسع مما كان. لكن في داخله بقي شيء ثقيل، صراع لم يتوقف: هل ما شعر به في الصلاة مجرد لحظة عابرة، أم أنه بداية طريق جديد؟ لم يكن يعرف. كل ما كان يعرفه أنه لأول مرة منذ زمن لم يشعر أن يومه نسخة من أمس.

عاد يسير في الشوارع وهو يتأمل الوجوه. هناك امرأة تحمل طفلًا على كتفها، يصرخ وهو يشير إلى دمية في واجهة متجر. في زاوية الرصيف جلس شاب يبيع مناديل ورقية، ملامحه متعبة وعيناه غائرتان لكنه كان يبتسم للمارّة وكأنه يعرف سرًا لا يعرفونه. أصوات السيارات، خطوات الناس، حتى رنين الهاتف المحمول لرجل يمر بجانبه، كلها بدت لمحمد كأنها مقاطع في لحن واحد لا يتوقف.

عندما مر بالمقهى ثانية، كان سامر ونادر لا يزالان هناك. لوّحا له بإشارة أن يقترب، فتردد لحظة قبل أن يقرر الجلوس. جلس لكنه شعر أن الكرسي أبعده أكثر مما قرّبه.

"يبدو وجهك مختلفًا اليوم"، قال نادر وهو يرفع حاجبيه مازحًا، "هل غيّرت وسادتك أم حلمت حلمًا جميلًا؟"

ابتسم محمد نصف ابتسامة وقال: "ربما استيقظت بطريقة أخرى".

تدخل سامر وهو يضع هاتفه على الطاولة: "ألا تكف عن الغموض؟ تحدث بوضوح، نحن لسنا فلاسفة! ماذا بك؟"

ظل محمد صامتًا للحظة، ينظر إلى بخار القهوة المتصاعد من الكوب أمامه، ثم قال: "أشعر أننا نهرب من أنفسنا كل يوم. نضحك، نمزح، نكرر نفس الأحاديث، لكننا لا نعرف لماذا نفعل ذلك".

قهقه نادر بصوت عالٍ: "يا رجل! هذه هي الحياة. لا تبحث لها عن معنى، وإلا جننت".

لكن سامر لم يضحك، بل بدا عليه شيء من الضيق: "هل تقول إن وقتنا هنا بلا معنى؟ نحن أصدقاء منذ سنين، وهذه الجلسات هي ما يبقينا واقفين وسط هذا الزحام".

نظر محمد في عينيه بجدية: "ربما نحن نقف لكننا لا نسير. الفرق كبير".

ساد الصمت مرة أخرى، أثقل من الصمت الأول. شعر محمد بأن كلماته كسرت شيئًا في هواء المقهى. أراد أن يشرح أكثر، لكنه خشي أن يبتعدا عنه. في داخله كان يريد أن يصرخ بما شعر به عند السجود، لكنه لم يستطع.

"أتعرف"، قال نادر محاولًا كسر التوتر، "لو استمعت إليك كثيرًا سأترك الجامعة وأدخل ديرًا! يكفي يا رجل، نحن بالكاد نتحمل همومنا".

محمد لم يرد. رفع الكوب ببطء وارتشف رشفة صغيرة، ثم وضعه بعناية على الطاولة كمن يضع نقطة على نهاية جملة.

عندما غادر المقهى، اقترح سامر أن يمشوا قليلًا. في الطريق صمتوا جميعًا، لكن العيون كانت تفضح ما بداخلهم. كان نادر يتأمل المارة باهتمام زائد، كأنه يبحث عن مزحة جديدة. أما سامر فكان يشيح بوجهه كلما التقت عيناه بعيني محمد، وكأنه يخشى ما قد يقوله صديقه.

بينما هم يسيرون، توقفت خطوات محمد فجأة. أمامه كان طفل صغير يجلس على الأرض، يحاول ربط حذائه البالي بينما أخوه الأكبر يصرخ فيه ليسرع. ركع محمد بجانب الطفل وربط الحذاء له ببطء، ثم ربت على كتفه. نظر الطفل إليه بعينين واسعتين، وقال بخجل: "شكرا يا عمو".

تابع محمد السير دون أن يقول شيئًا، لكن المشهد ظل عالقًا في ذهنه كصورة لا تمحى.

"أنت تتصرف بغرابة حقيقية اليوم"، قال سامر وهو يزفر. "منذ متى تهتم بربط أحذية الغرباء؟"

أجابه محمد: "منذ بدأت أرى ما حولي، لا ما بداخلي فقط".

لم يفهم سامر قصده، لكنه لم يرد الجدال.

وصلوا إلى الحديقة نفسها التي اعتادوا الجلوس فيها. جلسوا على المقعد الخشبي المعتاد، لكنه بدا لمحمد هذه المرة أقدم وأكثر تشققًا. الطيور كانت تحوم فوق الأشجار، وأصوات الأطفال تتردد في الأرجاء. جلس الثلاثة في صمت حتى قال نادر: "محمد، صرت غريبًا علينا. هل ستتركنا قريبًا؟"

نظر محمد إليه وقال: "لا أترككم، لكن ربما أترك شيئًا لا يفيدني. لست متأكدًا بعد".

"وهل المسجد هو ما جعلك تتحدث هكذا؟" سأله سامر بحدة مفاجئة.

تفاجأ محمد من السؤال، لكنه أجاب بهدوء: "ربما. أو ربما جعلني أسمع نفسي لأول مرة".

أدار سامر وجهه وقال: "أنا لا أريد أن أفقدك. لكنني لا أفهمك بعد الآن".

كانت كلمات سامر ثقيلة على قلب محمد، لكنه لم يجد ردًا. اكتفى بأن ينظر إلى السماء التي كانت تمتلئ بغيوم بيضاء متفرقة، وكأنه يبحث عن جواب مكتوب بينها.

في طريق العودة، مروا بشارع جانبي حيث احتشد الناس حول حادث صغير: دراجة هوائية اصطدمت برجل مسن. كان الرجل جالسًا على الأرض والناس من حوله يثرثرون أكثر مما يساعدون. تقدم محمد نحو الرجل ومد يده ليعينه على الوقوف. ارتبك السائق الشاب وهو يعتذر، لكن العجوز قال بصوت مبحوح: "الحمد لله على كل حال".

أمسك محمد بيد العجوز حتى جلس على مقعد قريب. لاحظ أن يديه ترتجفان لكنه كان يبتسم رغم ذلك. قال له محمد: "هل أنت بخير؟".

أجابه العجوز: "أنا بخير يا بني. الحياة كلها حوادث صغيرة، المهم ألا يسقط القلب معها".

تجمد محمد في مكانه. شعر أن الجملة لم تكن مجرد رد عابر، بل رسالة موجهة إليه. ظل يرددها في داخله: ألا يسقط القلب معها.

بعد أن اطمأن عليه، تابع طريقه. كان صامتا طوال المسافة، بينما نادر يحاول التخفيف بالمزاح وسامر يسير بوجه متجهم.

عندما عاد إلى البيت، وجد أمه في المطبخ تغسل الصحون. نظرت إليه سريعًا ثم قالت: "وجهك مضيء اليوم يا محمد. هل حدث شيء؟".

تردد قليلًا ثم قال: "لا أعرف. لكنني أشعر أنني بدأت أرى أشياء لم أرها من قبل".

ابتسمت الأم وقالت: "ربما قلبك هو الذي بدأ يرى".

جلس محمد في غرفته، فتح دفتره وكتب:
"اليوم رأيت طفلًا يحتاج إلى من يربط له الحذاء، ورجلًا مسنًا يسقط لكنه ينهض مبتسمًا. ربما المعنى ليس بعيدًا كما كنت أظن. ربما هو هنا، في تفاصيل صغيرة لا نلتفت إليها".

رفع رأسه من على الورق، شعر لأول مرة أن القلم يسبقه في التفكير، وكأن الكلمات لم تعد عبئًا بل طريقًا.

مع غروب الشمس، سمع صوت الأذان من جديد. هذه المرة لم يتردد. نهض بسرعة وارتدى معطفه وخرج إلى المسجد. كانت خطواته أسرع من العادة، وقلبه يسبق جسده. عندما وصل، كان الصفوف قد بدأت تنتظم. دخل ووقف بينهم، شعر كأنه عاد إلى مكان يعرفه منذ زمن بعيد.

في السجود، سمع قلبه يقول له: "ها أنا أعود". فبكى.

بعد الصلاة، جلس قليلًا في ركن المسجد يتأمل الأضواء المتدلية من السقف. كان الشيخ عمر هناك، يبتسم له ابتسامة صافية. قال له: "كل بداية تحتاج إلى صدق. لا تبحث عن الكمال يا بني، فقط كن صادقًا مع نفسك".

خرج محمد من المسجد وفي داخله قرار غير واضح لكنه ثابت: أن يستمر في هذه الطريق ولو تعثر.

في الليل، جلس على سريره يتأمل السقف، يسمع أصوات الشارع البعيدة، ضحكات، صرخات، أصوات محركات. لكنها لم تعد تشوشه كما في السابق، بل صارت كأنها حروف في جملة كبرى.

أمسك دفتره وكتب:
"كنت أظن أن الصخب يغلق علي الطريق، لكنني أدركت أنه لغة علي أن أتعلم قراءتها. ربما كل صوت في الخارج مرآة لصوت في الداخل. وربما البداية الحقيقية هي أن أصغي لا أن أهرب".

أغلق الدفتر، أطفأ الضوء، لكن قلبه ظل مضاء. قبل أن يغفو، تذكر صباح الفصل الأول: الضجيج، الضباب، المقهى. ابتسم وهو يقول لنفسه: "الصخب نفسه... لكن عيني تغيّرت".

الفصل الثالث : ثقل الحرية

ستيقظ محمد في صباح بارد، والسماء ملبدة بغيوم رمادية متفرقة، وكأن النهار لم يقرر بعد إن كان سيمنح المدينة شمسًا أم مطرًا. كان صوت المذياع الصغير في المطبخ يصل إلى أذنه خافتًا، حيث تبث المذيعة أخبارًا عابرة عن الازدحام المروري وحالة الطقس، لكن قلبه لم يكن مشغولًا بالطرق ولا بالمطر، بل بما ينتظره في داخله. منذ أيام وهو يشعر أن شيئًا يتغير فيه بسرعة أكبر مما يحتمل.

دخل المطبخ فوجد والدته تحضر الشاي. ابتسمت له ابتسامة صغيرة وقالت: "أصبحت تستيقظ أبكر من الديك يا محمد". جلس على الكرسي الخشبي المتهالك، نظر إلى البخار المتصاعد من إبريق الشاي، وقال: ""النوم صار يضيق عليّ يا أمي".

وضعت كوبًا أمامه وجلست مقابلة له. كانت عيناها تبحثان في وجهه عن شيء، عن تفسير لما جرى له مؤخرًا. "أشعر أنك لم تعد نفس محمد الذي أعرفه"، قالت بصوت متردد. لم يجب فورًا، أخذ رشفة من الشاي، ثم قال: "ربما لأني لم أكن أعرف نفسي من قبل".

هزت رأسها بتنهيدة طويلة، ولم تضف شيئًا. لكنها في داخلها أحست أن ابنها بدأ يسير في طريق لا تستطيع أن ترافقه فيه، وإن كانت تدعو له أن يكون هذا الطريق خيرًا.

خرج محمد من البيت متثاقل الخطى. كان الشارع شبه خالٍ إلا من بائع الخضار الذي يرش الماء على صناديقه، ورائحة الطماطم الطازجة تعبق في الجو. الهواء البارد تسلل إلى صدره، لكنه لم ينزعج، بل شعر أن هذا البرد يوقظه أكثر من أي قهوة.

عند المقهى، وجد سامر جالسًا وحده هذه المرة، عيونه غارقة في شاشة هاتفه، ملامحه متعبة وكأنه لم ينم جيدًا. رفع رأسه حين رآه وقال: "أهلاً بالفيلسوف! اجلس، عندي ما أريد قوله".

جلس محمد أمامه دون أن يطلب شيئًا. كانت الطاولة عليها بقايا سكر متناثر، وكوب قهوة فارغ نصفه جاف، والهواء داخل المقهى يختلط فيه دخان السجائر برائحة البن المحترق.

بدأ سامر الحديث مباشرة: "اسمع، لا أعرف ماذا يجري معك مؤخرًا. أنت تتغير بسرعة لا أستطيع أن ألحق بها. البارحة قال نادر إنك أصبحت شيخًا. وأنا... لا أضحك، بل أقلق".

ابتسم محمد بخفة وقال: "لست شيخًا يا سامر. فقط بدأت أنظر إلى الأمور بشكل مختلف".

ضرب سامر الطاولة بيده بخفة: "لكننا كنا دائمًا معًا! نضحك، نسهر، نتذمر من نفس الأشياء. الآن أنت تبتعد. أشعر أنك تنسحب منا كما ينسحب الرمل من بين الأصابع".

شعر محمد بوخز في صدره. كان يحب سامر بصدق، لكن الحقيقة أن المسافة بينهما صارت تكبر كل يوم. قال بهدوء: "أنا لم أترككم، لكني لا أستطيع أن أبقى كما كنت. هناك شيء في داخلي يطالبني أن أكون صادقًا معه".

"وماذا عنّا نحن؟" قال سامر بعينين دامعتين تقريبًا. "هل سنُترك خلفك؟"

لم يجد محمد جوابًا مباشرًا. تذكر لحظة السجود في المسجد، تلك الطمأنينة التي لم يعرف مثلها، وتذكر ضحكاتهم القديمة على نفس هذا الكرسي. قال: "أنا أبحث يا سامر. أبحث عن معنى، عن اتجاه. إن استطعتم أن تسيروا معي سأكون سعيدًا، وإن لم... فسأظل أحبكم من بعيد".

ساد الصمت بينهما، ثقيلًا كالجبال. خارج المقهى كان صوت بائع الجرائد يصرخ: "عناوين اليوم! آخر الأخبار!". لكن بينهما لم يكن هناك خبر سوى هذا: أن الصداقة أمام مفترق طرق.

نهض سامر فجأة وقال: "أنا ذاهب. لا أحتمل هذا الكلام الآن". ترك النقود على الطاولة وخرج مسرعًا، تاركًا محمد مع كوب فارغ وقلب ممتلئ بالأسئلة.

جلس محمد لدقائق طويلة، يتأمل الأثر الذي تركته يدا سامر على الطاولة، ثم خرج بدوره. الشارع كان يعج بالحركة الآن: أطفال بزي مدرسي يركضون وهم يحملون حقائب أكبر من أجسادهم، نساء يتجادلن مع بائع السمك حول السعر، ورجل يجر عربة محملة بالكراتين وهو يلهث. كل هذا بدا لمحمد كمسرح كبير، وكل شخص يؤدي دوره بحذافيره.

بينما يسير، سمع جلبة في الزقاق الجانبي. اتجه نحوها فوجد الناس متحلقين حول شاب وقع أرضًا مغشيًا عليه. كان وجهه شاحبًا، والعرق يتصبب من جبينه. الجميع يتحدث، لكن أحدًا لا يفعل شيئًا. تقدم محمد بسرعة، انحنى إلى الشاب، رفع رأسه قليلًا، وصرخ: "أحدكم اتصل بالإسعاف!".

تأخر الناس، فخلع محمد معطفه ووضعه تحت رأس الشاب. تذكر فجأة كلمات العجوز الذي ساعده في الحادث سابقًا: "المهم ألا يسقط القلب معها". شعر أن قلبه هذه المرة لا يسقط، بل يقفز لينقذ.

بعد دقائق جاءت سيارة الإسعاف وأخذت الشاب. بقي محمد واقفًا وسط الجمع، أنفاسه سريعة لكنه مطمئن أنه فعل ما يستطيع. أحد المارة قال له: "بارك الله فيك يا بني، قليل من الناس من يتحرك هكذا".

ابتسم محمد ابتسامة باهتة، ثم تابع طريقه.

مع كل خطوة، كان يسمع صدى سامر في أذنه: "هل سنُترك خلفك؟" وصدى الرجل الغريب: "بارك الله فيك". بين هذين الصوتين كان قلبه يتمزق، لكنه شعر أن الطريق الذي بدأه لا يسمح له بالرجوع.

عاد محمد إلى البيت متعبًا رغم أن يومه لم يبدأ بعد. جلس قرب النافذة يراقب المطر الذي بدأ يتساقط بخفة على الزجاج، قطرات صغيرة تتسابق نحو الأسفل وكأنها في سباق لا نهاية له. كان يسمع أصوات الجيران في الخارج، خطوات مسرعة تختبئ تحت المظلات، وضحكات أطفال يركضون رغم المطر. شعر أن المدينة كلها تتحرك بوتيرة سريعة، بينما هو متوقف عند نقطة غامضة بين ماضٍ لم يعد يرضيه ومستقبل لا يعرف معالمه.

رن هاتفه فجأة. كان نادر. تردد محمد قليلًا قبل أن يجيب، لكنه ضغط على زر الاتصال في النهاية. جاءه صوت نادر قويًا كعادته: "أين أنت يا رجل؟ لا نراك منذ أيام. هيا، تعال نجلس قليلاً، هناك أمور يجب أن نتحدث عنها".

لم يشأ محمد أن يرفض. خرج مجددًا، المطر يبلل كتفيه رغم المظلة التي يحاول تثبيتها. وصل إلى المقهى الآخر، ذاك الذي يفضله نادر، وكان أكثر ضجيجًا من مقهى سامر: موسيقى عالية، دخان كثيف، وروائح قهوة ممزوجة بالتبغ.

جلس نادر وقد ارتدى معطفًا أنيقًا، عطره القوي يسبق كلماته. فتح ذراعيه وقال: "ها هو الفيلسوف الثاني! سمعت أنك تقضي وقتك في المساجد وتقرأ كتبًا غريبة. ماذا جرى لك؟".

ابتسم محمد بهدوء: "لم يجر لي شيء، فقط بدأت أفكر أكثر".

ضحك نادر بصوت عالٍ جذب انتباه الطاولات المجاورة: "تفكر أكثر؟ اسمع يا محمد، التفكير لا يطعم خبزًا. العالم لا ينتظر أحلامنا، بل يدهسنا إن لم ندهسه أولاً. أنت تضيع وقتك في أوهام".

شعر محمد بمرارة، لكنه لم يرد بعصبية. قال: "ربما يكون كلامك صحيحًا في الظاهر. لكني بدأت أشعر أن الحياة أكثر من مطاردة المال واللهو. هناك شيء أعمق".

هز نادر رأسه بازدراء: "هذا كلام الضعفاء. نحن نصنع لأنفسنا ما نريد، لا ننتظر معاني هشة تسقط من السماء. ألا ترى نفسك؟ كنت تجلس معنا، نضحك ونمرح، الآن صرت تنظر إلينا كأننا صغار. هل تعتقد أنك أفضل منا؟".

ارتجف محمد من وقع الكلمات. لم يقصد يومًا أن يظهر متعالياً. قال: "لست أفضل منكم. لكن كل واحد فينا يبحث عن طريقه. أنا وجدت شيئًا يجعل قلبي ساكنًا".

اقترب نادر منه أكثر، نظر في عينيه مباشرة: "السكينة وهم يا محمد. القوة وحدها التي تبقى. من يرحم يضعف، ومن يضعف يُدهس. أريدك أن تفهم هذا قبل أن تندم".

لم يجد محمد ما يقوله. كان يسمع ضجيج المقهى من حوله، أصوات الكراسي التي تتحرك، النادل ينادي على الطلبات، لكن كل هذا تلاشى أمام عيني نادر المليئتين بالتحدي.

غادر نادر بعد قليل، تاركًا وراءه عطره الثقيل وكلماته الأكثر ثقلًا. بقي محمد وحده للحظات، شعر أن الهواء داخل المقهى خانق. خرج مسرعًا، المطر قد اشتد هذه المرة، السماء مظلمة رغم أن النهار لم ينتهِ بعد.

سار بلا اتجاه حتى وجد نفسه قرب المسجد. كان باب المسجد مفتوحًا، وأصوات التلاوة تتسرب إلى الخارج كخيط من نور وسط الظلام. دخل بخطوات مترددة، خلع حذاءه، وجلس في الصف الأخير.

كان هناك شيخ مسن يجلس قرب العمود، لحيته بيضاء ووجهه يشع هدوءًا. لاحظ وجود محمد، فأشار له أن يقترب. جلس محمد بجانبه.

"قال الشيخ بصوت دافئ: "غريب وجهك علي، لم أرك هنا من قبل".

"أجاب محمد بخجل: "أتيت مرات قليلة فقط".

"ابتسم الشيخ: "المكان بيتك، كلنا ضيوف في بيوت الله. لكن أخبرني، لماذا تبدو عيناك مثقلتين بالأسئلة؟".

صمت محمد طويلًا، ثم قال: "أشعر أني ضائع بين طريقتين في العيش. أصدقائي يظنون أني تغيرت. البعض يبتعد عني، البعض يسخر مني. وأنا... لا أعرف هل أنا أسير في الطريق الصحيح أم أتوهم".

أطرق الشيخ رأسه قليلًا ثم قال: "الناس دائمًا يخافون ممن يتغير. لأن التغيير يذكرهم بأنهم هم أيضًا يستطيعون أن يتغيروا، لكنهم لا يريدون. فلا تجعل خوفهم يقيدك. اسمع قلبك، ولا تنسَ أن الله لا يضيع من يطلبه بصدق".

شعر محمد أن الكلمات تسقط في داخله كالمطر على أرض عطشى. لأول مرة منذ أيام شعر أن أحدًا فهم ما بداخله دون أن يحكم عليه.

قال الشيخ: "تعال كلما ضاقت بك الطرق. هنا لن يسألك أحد لماذا جئت، ولن يلومك أحد على ما تشعر. نحن جميعًا مسافرون، والراحة الوحيدة في أن نعرف وجهتنا".

ابتسم محمد وشعر أن شيئًا من الثقل انزاح عن صدره. خرج من المسجد وقد هدأ المطر قليلًا، السماء ما زالت ملبدة لكن هناك نورًا خفيفًا يخترقها.

بينما يسير، تذكر كلمات نادر عن القوة، وكلمات الشيخ عن الوجهة. بين الصوتين كان الطريق لا يزال غامضًا، لكن قلبه بدأ يميل إلى ما يمنحه سكينة لا يجدها في مكان آخر.

كان الليل قد أسدل ستاره على الحي، والهواء مشبع برائحة المطر الذي غسَل الأرصفة وترك لمعانًا على الحجارة القديمة. الأضواء الصفراء للمصابيح تتناثر على طول الشارع، تعكس نفسها على برك صغيرة من الماء، بينما أصوات المحركات والضحكات المتأخرة تنسج مزيجًا من الصخب والسكينة في آن واحد.

محمد عاد من المسجد بعد صلاة العشاء، قلبه لا يزال متأثرًا بكلمات الشيخ عمر. شعر أن هناك شيئًا يتشكل في داخله ببطء، مثل بذرة صغيرة بدأت تنبت رغم ثقل التربة. لكنه لم يكن يدري أن هذه الليلة ستحمل له اختبارًا لم يخطر له ببال.

بينما كان يقترب من زقاق ضيق يقود إلى منزله، سمع صراخًا حادًا. توقّف، التفت نحو الصوت، فشاهد مجموعة من الشباب يتجمعون حول رجل مسن. كان الرجل يتراجع إلى الوراء، يضع يده على صدره وكأنه يحاول حماية نفسه، بينما يضحك أحدهم بصوت عالٍ وهو يدفعه.

تسارعت أنفاس محمد. لم يكن بينه وبينهم سوى أمتار قليلة. اقترب أكثر فرأى أن أحد الشباب ليس سوى نادر، يقف وسط المجموعة، صوته أعلى من الجميع وهو يصرخ: "هذا العجوز لا يفهم! يقول إنه لا يملك النقود! يظن أننا أطفال نمزح؟".

شعر محمد أن الأرض تميد تحته. لم يتصور أن نادر قد يصل إلى هذا الحد. الرجل المسن يحاول التوسل، صوته مبحوح: "يا أولادي، والله لا أملك شيئًا. دعوني وشأني".

لم يفكر محمد كثيرًا. اندفع إلى الأمام وصاح: "توقفوا!". استدار الجميع نحوه بدهشة، خاصة نادر الذي لم يتوقع أن يراه.

"ماذا تفعل هنا يا محمد؟" قال نادر، صوته ممتزج بالاستفزاز.

"اقترب محمد أكثر، عيناه لا تفارقان عيني نادر: "اترك الرجل وشأنه، هذا عيب.

"ضحك أحد الشباب الآخرين: "ها قد جاء الواعظ! يريد أن يعلّمنا الأخلاق.

لكن محمد لم يلتفت إليه. وضع يده على ذراع نادر محاولاً دفعه للخلف، وقال بجدية: "نادر، هذا ليس لعبًا. أنت تجرح نفسك قبل أن تجرح الرجل."

"غضب نادر، سحب ذراعه بقوة وصاح: "ابتعد عني! من أعطاك الحق أن تتدخل؟.

سرت لحظة صمت مشحون بينهما، كأن الحي كله توقف ليستمع. محمد شعر أن جسده يرتجف، لكنه لم يتراجع. اقترب من الرجل المسن وسنده بذراعه، ثم قال بلهجة حازمة: "اذهب يا عم، الطريق آمن."

العجوز تمتم بكلمات شكر بصوت متهدج، وانسحب ببطء حتى اختفى في الظلام. بقي محمد في مواجهة نادر ورفاقه.

لقد خذلتني يا محمد"، قال نادر وهو يبتسم بسخرية مرة. "كنت أظنك تفهم معنى القوة، لكنك اخترت أن" تكون ضعيفًا".

رد محمد بصوت ثابت رغم ارتجاف قلبه: "القوة ليست في إيذاء الضعفاء. القوة أن تكبح نفسك حين تغريك. هذا ما لم تفهمه".

ضحك أحدهم، آخر بصق على الأرض، لكن نادر ظل واقفًا يحدق في محمد بعينين تشتعلان غضبًا. ثم استدار فجأة وقال لرفاقه: "هيا بنا، لا فائدة". وغادروا تاركين محمد وحده في الزقاق.

شعر محمد أن قدميه لا تحملانه، لكنه مشى ببطء نحو بيته. في كل خطوة كان يسمع صدى كلمات نادر، وصدى صرخاته هو نفسه حين اندفع لينقذ الرجل. لم يكن يعرف هل ما فعله سيزيد الفجوة بينه وبين أصدقائه، لكنه كان واثقًا أنه لم يستطع أن يتصرف بغير ذلك.

حين وصل إلى البيت وجد أمه تنتظره عند الباب، عيناها قلقتان: "سمعت صراخًا في الخارج، هل حصل شيء؟".

ابتسم بضعف وقال: "لا تقلقي يا أمي، فقط بعض الفوضى في الشارع". لم يشأ أن يثقل عليها بالحقيقة.

دخل غرفته وأغلق الباب، جلس على سريره وهو يسترجع ما جرى. كان قلبه مضطربًا، لكنه شعر أيضًا براحة غريبة. كأن داخله يقول له: لقد اخترت الطريق الصعب لكنه الصحيح.

في اليوم التالي، بعد صلاة الفجر، قرر أن يذهب لرؤية الشيخ عمر. وجده جالسًا في المسجد كعادته، يقرأ القرآن بهدوء. جلس بجانبه، ثم قال بصوت متهدج: "شيخي، بالأمس واجهت صديقًا لي. كان يؤذي رجلاً مسنًا، ولم أستطع إلا أن أتدخل. لكني الآن أشعر بالتمزق. هل كنت على حق؟ أم كنت متسرعًا؟".

وضع الشيخ يده على كتف محمد، وقال بابتسامة: "يا بني، من يقف في وجه الظلم لا يكون متسرعًا. الله يختبرنا بمثل هذه المواقف، ليرى أين نقف. ليس المهم أن يرضى عنك صديقك، بل أن ترضى عن نفسك أمام ربك".

دمعت عينا محمد وهو يسمع الكلمات. شعر أن الشيخ لم يرد فقط على سؤاله، بل على صراع طويل في داخله.

قال الشيخ: "اعلم أن الطريق الذي اخترته لن يكون سهلاً. ستخسر بعض الصحبة، وربما تواجه سخرية أو عداوة. لكن كل خطوة في هذا الطريق تقربك من وجهة لن يندم من يصلها أبدًا".

جلس محمد طويلًا بجانبه، يستمع لنبرات صوته الهادئة، وكأنها تضع بلسمًا على جراح قلبه. وحين خرج من المسجد، كان الصبح قد انبلج، السماء صافية والهواء نقي.

شعر أنه رغم العواصف التي تهب حوله، هناك في داخله نور بدأ يشتعل، ولن ينطفئ بسهولة.

في الأيام التالية للحادثة، تغيرت نظرات الناس في الحي تجاه محمد. البعض كان يحييه بابتسامة تقدير صامتة، وكأنهم يشكرونه دون كلام، والبعض الآخر يشيح بوجهه خوفًا من أن يضع نفسه في موقف مشابه. لكن أكثر ما أثقل قلبه كان غياب سامر ونادر.

كان قد اعتاد أن يراهم كل صباح في المقهى، يجلسون في نفس الطاولة، يضحكون على نفس النكات، يتشاجرون أحيانًا على تفاصيل تافهة ثم يتصالحون بسرعة. الآن، المقهى بدا فارغًا، أو لعل قلبه هو الذي فقد امتلاءه. مرّ أمامه أكثر من مرة، فرأى سامر ونادر يجلسان وحدهما، لكنهما لم يلوحا له كالمعتاد. جلس بعيدًا في زاوية أخرى، يراقبهما من بعيد، ولاحظ أن حديثهما أصبح أكثر همسًا وأن نظراتهما تتجه نحوه أحيانًا ثم تبتعد سريعًا.

"في إحدى المرات، قرر أن يقترب، علّ الصمت ينكسر. وقف بجوار طاولتهما وقال: "السلام عليكم".

رفع سامر رأسه ببطء، رد ببرود: "وعليكم السلام". أما نادر فقد أشاح بوجهه وكأنه لم يسمع.

"جلس محمد دون أن يُدعى، أمسك بكوب القهوة وابتسم محاولًا أن يخفف التوتر: "اشتقت لحديثنا الصباحي".

نادر ضحك بسخرية وقال: "حديثنا الصباحي؟ هل تقصد محاضراتك عن الأخلاق؟ لقد وجدت مكانًا أفضل لها، أليس كذلك؟ المسجد الصغير في الزقاق!".

"حاول محمد أن يحافظ على هدوئه: "أنا لم أبتعد عنكم. أنتم من أغلق الباب".

تدخل سامر سريعًا قبل أن يتصاعد النقاش: "يكفي يا نادر. محمد... نحن فقط لم نعد نفهمك. كنت واحدًا منا، الآن صرت شخصًا آخر".

"ابتسم محمد بحزن وقال: "ربما هذا صحيح. لكنني لم أتغير لأهرب منكم. تغيرت لأبحث عن نفسي".

سادت لحظة صمت ثقيل. ثم قال نادر بحدة: "ابحث عن نفسك بعيدًا عنا إذن". ودون أن يضيف شيئًا، نهض وغادر المقهى.

بقي محمد جالسًا أمام سامر، يتأمل عينيه المتردّدتين. كان يريد أن يقول شيئًا، أي شيء يعيد الخيط بينهم، لكنه وجد الكلمات معلقة في حلقه. في النهاية، اكتفى سامر بالهمس: "أنت تعرف أنني لا أكرهك، لكنني لا أستطيع أن أتابعك في هذا الطريق". ثم نهض هو الآخر وغادر.

ترك محمد وحيدًا، يشعر أن الطاولة القديمة التي جمعتهم سنوات، صارت فجأة شاهدًا على انفصال لا رجعة فيه.

خرج إلى الشارع والهواء البارد يلسع وجهه. سار بلا وجهة، فقط يحاول أن يمشي ليهرب من ثقل قلبه. وبينما هو غارق في صمته، سمع صوت الشيخ عمر يناديه من بعيد: "محمد! تعال يا بني".

التفت فرأى الشيخ واقفًا عند باب المسجد، يحمل في يده مسبحة خشبية صغيرة. اقترب منه وهو يحاول أن يخفي حزنه بابتسامة.

"وجهك يقول إنك تحمل همًا ثقيلاً"، قال الشيخ وهو يضع يده على كتفه.

"تنهد محمد: "أشعر أنني أفقد كل شيء... أصدقائي ابتعدوا، وحتى عندما أحاول الاقتراب، أجد جدارًا بيننا".

ابتسم الشيخ بهدوء وقال: "أتعلم يا بني؟ الصداقة الحقيقية لا تنكسر بالاختلاف. لكنها تُختبر. ربما ابتعادهم الآن ليس خسارة، بل مساحة لك لتعرف أين تقف. والحيّات دائمًا ما تترك جلدها لتكبر، وكذلك القلوب تترك بعض الروابط لتجد روابط أعمق".

جلسا معًا على درج المسجد، والسماء فوقهما تتدرج من الأزرق الفاتح إلى الغروب البرتقالي. السيارات تمر مسرعة، الأطفال يركضون خلف كرة، باعة متجولون يصرخون بأعلى أصواتهم. لكن بين كل هذا الضجيج، كان صوتهما خافتًا كأنه سر مشترك.

"قال محمد: "لكنني أخشى الوحدة.

رد الشيخ بابتسامة صافية: "الوحدة يا بني ليست أن تكون بلا أصدقاء، بل أن تكون بلا معنى. طالما قلبك مليء بالبحث عن الله، فلست وحيدًا. ستجد من يشبهك، ربما بعد حين، وربما في مكان آخر. لكن البداية دائمًا تكون وحدك".

أطرق محمد رأسه، وأحس أن الكلمات دخلت قلبه كنسيم بارد يخفف لهيبًا داخليًا.

بعد العشاء، عاد إلى بيته. جلس في غرفته وفتح دفتره القديم. كتب بخط مرتجف:

"اليوم، بدأت أفقد أصدقائي. لكن ربما هذه الخسارة ليست نهاية. ربما هي بداية لشيء آخر لا أراه بعد. كأنني أخلع جلدي القديم لأجد نفسي الجديدة. الوحدة تؤلمني، لكنها تعلّمني".

أغلق الدفتر، وألقى بجسده على السرير. من نافذته، كان يسمع أصوات الحيّ: صراخ الباعة، خطوات عابرة، مواء قطة تبحث عن طعام. لكن في الخلفية، كان يعلو صوت آخر: صوت المؤذن ينادي للعشاء. شعر أن الأذان صار صديقًا لا يتخلى عنه، نداءً ثابتًا في عالم يتغير كل يوم.

في اليوم التالي، وبينما هو في طريقه إلى المسجد، رأى سامر يقف وحده عند زاوية الشارع. تردّد لحظة ثم اقترب منه. سامر كان يدخن سيجارة، عيناه شاردتان. عندما رآه، قال بصوت منخفض: "محمد، هل لديك دقيقة؟".

توقف محمد، وقلبه يخفق. لم يرد بالكلام، فقط أومأ برأسه.

سامر تردد، ثم قال: "أحيانًا أشعر أنك محق. أن حياتنا بلا معنى. لكنني لا أستطيع أن أترك كل شيء دفعة واحدة مثلما فعلت. أخاف أن أضيع".

اقترب محمد أكثر، وقال بهدوء: "أنا أيضًا خائف يا سامر. لكنني أحاول أن أمشي خطوة خطوة. لستُ أفضل منك، فقط اخترت أن أبدأ".

ظل سامر صامتًا لحظة طويلة، ثم رمى سيجارته على الأرض وسحقها بحذائه. قال بصوت متعب:
""ربما... ربما أحتاج أن أراك أحيانًا. فقط لأتذكر أن هناك طريقًا آخر".

ابتسم محمد لأول مرة منذ أيام، وشعر أن الخيط الذي انقطع قد بقي منه خيط صغير لم ينكسر تمامًا.

حين وصل إلى المسجد، كان الشيخ عمر جالسًا كعادته، يسبّح بهدوء. ابتسم محمد في داخله وقال: "الوحدة ليست كاملة... ربما الله يترك دائمًا بابًا صغيرًا مفتوحًا".

كان الفجر قد أطل ببطء من وراء الأبنية الرمادية التي طالما حجبت السماء عن أعين سكان الحي، لكنه هذه المرة بدا مختلفًا. خيوط الضوء الناعمة تسللت بين النوافذ المتهالكة كأنها أصرت على الدخول إلى كل زاوية مظلمة، تحمل معها شيئًا من الصفاء الذي غاب طويلًا. محمد استيقظ على صوت الأذان الأول، نهض

بهدوء، غسل وجهه بالماء البارد، ثم وقف أمام مرآة صغيرة في غرفته يتأمل ملامحه. لم يكن نفس الشاب الذي كان يخرج إلى الليل بحثًا عن ضجيج يقتل الصمت، ولا ذلك الذي يتسكع مع أصدقائه دون هدف، لقد تغيرت عيناه، صار فيهما عمق لم يعرفه من قبل، وفي ابتسامته شيء من الطمأنينة التي تشبه الطيور حين تجد مأواها بعد طيران طويل.

ارتدى ملابسه البسيطة، وخرج من شقته. الرطوبة ما زالت تلتصق بجدران الحي، لكن في صدره كان هواء آخر، أوسع وأنقى. الشارع الذي كان يراه بائسًا بدا له كأنه يستيقظ معه من سبات. بائع الخبز يضع الأرغفة الساخنة على الطاولة الخشبية أمام مخبزه، رائحة العجين الممزوجة بالدخان الخفيف تنبعث في المكان فتوقظ الحواس. قطة صغيرة تقفز بين الأقدام تبحث عن نصيبها، وطفل يحمل حقيبة مدرسية أكبر من جسده يركض متعثرًا في طريقه إلى المدرسة.

دخل محمد المسجد، وجد الشيخ عمر جالسًا على حصير قديم يتلو القرآن بصوت خافت، يملأ الزوايا المهملة بالسكينة. اقترب وجلس إلى جواره، لم يتحدث، فقط ترك الكلمات القرآنية تتسرب إلى قلبه كما هي، دون محاولة تفسير أو تأويل. شعر أن في هذه اللحظات الصغيرة يكمن السر الذي بحث عنه طويلًا، أن الطمأنينة لا تأتي من الخارج بل من الداخل، حين يجد الإنسان ما يملأ فراغه دون ضجيج.

بعد الصلاة، ابتسم له الشيخ عمر وقال: "أراك أخفّ يا محمد، كأنك تضع عنك ثقلًا كان يلازمك".

ابتسم محمد بدوره: "ربما بدأت أفهم يا شيخ أن الطريق ليس هروبًا ولا انكسارًا، الطريق أن تقف وتختار".

أومأ الشيخ: "وهذا أول الانتصارات".

خرج محمد من المسجد، وفي داخله ارتعاشة غريبة، كأنه يقف على عتبة شيء جديد لا يعرف اسمه. سار في الشارع الطويل حتى وصل إلى المقهى الذي كان يجلس فيه مع سامر ونادر. كان المكان شبه خالٍ، فقط صاحب المقهى ينفض الطاولات الخشبية من الغبار، والكرسي الذي اعتاد أن يحتله سامر بقي فارغًا كأنه ينتظره. جلس محمد للحظة، مد يده على الطاولة، تذكر الليالي الصاخبة، النقاشات التافهة، الضحكات التي

كانت تخفي صمتًا داخليًا عميقًا. ابتسم لنفسه، لا ازدراءً لتلك الأيام، بل حنينًا عابرًا لمن كان، وشكرًا لما صار.

عاد إلى بيته، وجد أمه واقفة عند النافذة، تنظر إلى السماء وقد انزاحت عنها الغيوم. التفتت نحوه وعيناها دامعتان: "محمد... صرت مختلفًا، حتى وجهك لم يعد مثل قبل."

اقترب منها، أمسك بيديها وقال: "كنت أبحث بعيدًا يا أمي، وظننت أني سأجد نفسي في الشوارع، لكني وجدتها هنا... بين دعواتك وصوت الأذان."

ضمته بقوة، لم تتحدث أكثر، فقط تركت دموعها تنزل على كتفه كأنها تغسل سنوات من الخوف والقلق.

في المساء، بينما كان يكتب في دفتره، سمع طرقات على الباب. نهض ببطء وفتح، فوجد سامر واقفًا بوجه متعب، عيناه محمرتان كمن لم ينم منذ ليالٍ. نظر إليه لحظة طويلة قبل أن يقول: "محمد... تعبت."

لم يرد محمد بكلمة، فقط ابتسم وفتح له الباب. جلسا معًا في الغرفة الصغيرة، الصمت يملأ الفراغ بينهما، حتى قال سامر بصوت مبحوح: "كنت أظنك تركتنا... تركتني. كلما رأيتك تبتعد شعرت أني أفقد شيئًا مني. لكن الليلة... الليلة أدركت أني أنا من يترك نفسه، وأني أحتاج أن أبدأ كما بدأت أنت."

تنهد محمد، وضع يده على كتف صديقه وقال: "لا يوجد متأخر يا سامر، الطريق يبدأ في اللحظة التي تختارها."

جلسا طويلًا يتحدثان، عن الماضي الذي لم يعد يثقلهم، عن المستقبل الذي لا يعرفان ملامحه لكنه لم يعد مخيفًا. شعر محمد أن صداقتهما عادت، لكن على أرضية جديدة، أكثر صدقًا وأقل ضجيجًا.

في الخارج، كان الحي يهدأ استعدادًا لليل، لكنه بدا هذه المرة حيًا أكثر من أي وقت مضى. أصوات الأطفال تتلاشى تدريجيًا، أبواب البيوت تُغلق، ورائحة الخبز الساخن تختلط برائحة المطر الخفيف الذي بدأ ينزل. فتح محمد نافذته، نظر إلى السماء، ابتسم.

جلس على مكتبه الصغير، فتح دفتره، وكتب بخط واضح:

"لم أعد أهرب من الضجيج، ولم أعد أبحث عن صمت مزيف. لقد وجدت الطريق، حتى وإن كان طويلاً وغامضًا. الطريق بدأ... وأنا اخترته."

أغلق الدفتر، ووضعه بجانب النافذة المفتوحة. هبّت نسمة باردة، حملت معها رائحة المطر وصوت الأذان من بعيد. شعر أن قلبه أخيرًا وجد ما كان يبحث عنه: سلام بسيط، عميق، لا يحتاج إلى ضوضاء ولا إلى هروب.

ابتسم، وأغلق عينيه، وكأن الليل كله يعاهده أن الغد سيكون أجمل.

النهاية ...